

الفصل الخامس
ليبيا في العصر الروماني

ليبيا في ظل الرومان

تمهيد:

حتل شبه جزيرة إيطاليا موقعا ممتازا على الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط. وتزداد أهمية هذا الموقع بسبب امتداد الساق الإيطالية وقدمها وجزيرة صقلية إلى مسافة كبيرة في داخل حتى تكاد تقسمه إلى حوضين: حوض شرقي وآخر غربي. وقبل ظهور روما والرومان كانت في إيطاليا ثلاثة عناصر سكانية مهمة هي:

1- الإغريق في جنوب إيطاليا وفي القسم الشرقي من صقلية. وكانت حضارتهم هنا امتدادا للحضارات الإغريقية في بلاد الإغريق.

2- الإترسكان وكانوا في الشمال في تسكانيا بين نهر التيبر ونهر أرنو. ثم انتشروا عبر التيبر على الساحل الغربي حتى خليج نابولي. وكانوا أصحاب حضارة قديمة تشبه الحضارة الفينيقية في اعتمادها على التجارة والزراعة والصناعة.

3- اللاتين وكانوا يقيمون في الوسط في سهل لاتيوم الذي يجري فيه نهر التيبر. فكانوا بذلك واقعين تحت تأثير حضارتي الإغريق والإترسكان فتأثروا بهاتين الحضارتين وأنشأوا سنة 755 ق.م. مدينة روما على سبع هضاب تقوم بالقرب من مصب نهر التيبر. ومن روما راحوا يبسطون سيطرتهم على القبائل المجاورة. ويوسعون دائرة نفوذهم شيئا فشيئا. حتى أقاموا دولة رومانية ملكية لم تلبث أن تحولت إلى جمهورية ثم إلى إمبراطورية.

حكومة روما الملكية:

تذهب الرواية الرومانية إلى أن الأخوين رومولس (Romulus) وريموس (Remus) رضيعي الذئبة هما اللذان أسسا روما سنة 755 ق.م. وكان رومولس الملك الأول عليها. ولم يكن النظام الملكي وراثيا بل كانوا ينتخبون ملوكهم بالهتاف والتصفيق تعبيرا عن الاستحسان والموافقة أو بالسكوت تعبيرا عن عدم الموافقة ولكنهم لم يكونوا قد عرفوا بعد نظام التصويت

والاقتراع. ومنذ هذه المرحلة المبكرة كان لهم مجلس شيوخ يتولى تحديد سلطة الملك وصلاحياته كما كانت لهم مجالس شعبية أخرى. ولكن السلطة في مجموعها كانت في يد الملك وأيدي تلك المجالس التي كانت في واقعها إنما تمثل الأرسطوقراطية المكونة من العسكريين والأثرياء. وكان الملك السابع والأخير هو الملك تاركويين الذي كان شديدا على الأغنياء. عطوفا على الفقراء والضعفاء. ما حمل الطبقة الأرسطوقراطية على الثورة عليه وطرده هو وابنه من روما وإعلان الجمهورية الرومانية سنة 508 ق.م.

حكومة روما الجمهورية:

كان النظام الجمهوري يرتكز أساسا على نزعة أرسطوقراطية أعطت كل شئ لطبقة النبلاء أو الأشراف وتركت طبقة البليبيانز أو الرعايا محرومة من المشاركة في الحكم والحقوق وحتى من التزاوج مع النبلاء. وكان الحكم في روما في هذه المرحلة في يد مجلس الشيوخ الروماني الذي كانت عضويته مقصورة على النبلاء. وفي كل سنة كان المجلس ينتخب قنصلين من الأشراف لمدة سنة ليتوليا قيادة الجيوش ويتأسسا مجلس الشعب ويتوليا السلطة القضائية ويسنوا القوانين والتشريعات بمشاركة مجلس الشيوخ ويقوموا بتنفيذها بعد ذلك.

وظلت طبقة الرعايا تكافح من أجل العدالة والمساواة حتى فازت بأول نصر كبير سنة 369 ق.م. عندما صارت تتمتع بجميع حقوق المواطنة المدنية وكانت ذلك النصر فاتحة سلسلة من الانتصارات والمكاسب. ففي سنة 300 ق.م. فازت هذه الطبقة بحق التمتع بالحقوق الدينية. وتوالت هذه الانتصارات التي هي في الواقع انتصار لروما على نفسها حتى توحد الشعب الروماني وتساوي أفراده أمام القانون وحلت الثروة أو الفقر محل الانتساب إلى أسرة الأشراف أو إلى طبقة الرعايا كميّاس يقرر مركز الفرد الاجتماعي ويمنحه أو يحرمه حق الانتخاب.

ومن الواضح أن هذا التطور كان يسير في اتجاه ديموقراطي سليم لم يلبث إن أدى إلى منح كافة الحقوق بما فيها حق الانتخاب لكل مواطن روماني

له مسكن. وظل ومجلس الشيوخ الروماني يتألف من ثلاثمائة عضو ولم تفتح لطبقة الرعايا أو العامة إلا ابتداء من سنة 400 ق.م. وبعد هذه المرحلة بدأت سلطاته تتقلص وتتحصر في إعداد مشروعات القوانين التي لم تكن لتصبح نافذة المفعول إلا بعد مصادقة المجالس الشعبية عليها. وفي تسيير السياسة الخارجية ومراقبة خزينة الدولة.

حكومة روما الإمبراطورية:

بانتصار يوليس قيصر. أحد القنصلين. على منافسه وزميله بومبي. القنصل الآخر. سنة 48 ق.م. أصبح الأول دكتاتورا يجمع في يده جميع مقاليد الأمور طيلة حياته. وكان كذلك إيذانا بنهاية العصر الجمهوري في روما وبدء العصر الإمبراطوري. وعندما اغتيل يوليس قيصر سنة 44 ق.م. نشبت حرب أهلية ثانية بين أنطوني وأكتافيوس من جهة وقتلة قيصر وأنصارهم من جهة أخرى ثم بين أكتافيوس وأنطوني وانتهت بانتصار أكتافيوس الذي أصبح أول إمبراطور روماني وتلقب بأوغسطس أي العظيم (29 ق.م - 14 م).

وفيما يلي جدول تاريخي بأسماء أباطرة الرومان الغربيين والشرقيين (البيزنطيين) وتواريخ حكمهم:

الأباطرة الغربيون

الأسرة اليوليسية:

1. أكتافيوس أوغسطس 29 ق.م - 14 م
2. تايبيريوس كلوديس 14 - 37 م
3. كاليغولا (جايوس جيرمانيكوس) 37 - 41 م
4. كلوديس (تايبيريوس دروسس) 41 - 54 م
5. لوسيس نيرون كلوديس 54 - 68 م

الأسرة الفلافية:

6. فلافيس فسبسيانس 69 - 79 م

7. تيطس فلافيوس سابينوس 81 - 79 م
8. تيطس فلافيوس دومتيانوس 96 - 81 م
- الأسرة الأنطونية:**
9. ماركس نيرفا 98 - 96 م
10. ماركس تراجانوس 117 - 98 م
11. هادريانوس 138 - 117 م
12. تيطس أوريليوس أنطونينوس 161 - 138 م
13. ماركس أوريليس 180 - 161 م
14. لوسيس كمودس 192 - 180 م
- الأسرة الأفريقية:**
15. سبتيميوس سويرس 211 - 193 م
16. كراكلا سويرس 217 - 211 م
17. أفيتس سويرس 222 - 218 م
18. اسكندر سويرس 235 - 222 م
- الفوضى العسكرية 285 - 235 م
19. ديوقلتيانوس 305 - 285 م
20. قسطنطين الكبير 337 - 306 م

نشأة القسطنطينية ونقل العاصمة من روما إلى بيزنطة

الباطرة البيزنطيون

- قسطنطينوس الثاني (Constantius II) 361 - 337 م
- جوليان المرتد (Julian the Apostate) 363 - 361 م
- جوفيان (Juvian) 364 - 363 م
- فليز (Valens) 378 - 364 م

الأسرة الثيودوسية (Theodosian Dynasty)

- ثيودوسيس الكبير (the Great Theodosius) 395 - 379 م
- أركاديوس (Arcadius) 408 - 395 م
- ثيودوسيس الثاني (Theodosius II) 450 - 408 م
- مارسيان (Marcian) 457 - 450 م
- الأسرة الليونينية (Dynasty Leonine)**
- ليو الأول (Leo I) 474 - 457 م
- ليو الثاني (Leo II) 474 م
- زينو (Zeno) 491 - 474 م
- أنسطاسيوس (Anastasius) 518 - 491 م
- الأسرة الجستينانية (Justinianian Dynasty)**
- جستين الأول (Justin I) 527 - 518 م
- جستينان الأول (Justinian I) 565 - 527 م
- جستين الثاني (Justin II) 578 - 565 م
- تيبيريوس الثاني (Tiberius II) 582 - 578 م
- موريوس (Maurice) 602 - 582 م
- فوكاس (Phocas) 610 - 602 م
- الأسرة الهرقلية (Dynasty Heraclian)** (وقع الفتح العربي في بداية عهدها)
- هرقليوس (Heraclius) 641 - 610 م
- قسطنطين الثالث (Constantine III) (توفي) 641 م
- هرقليوناس (Heracleonas) (خلع) 641 م
- قنستانس الثاني (Constans II) 668 - 641 م
- قسطنطين الرابع (IV Constantine) 685 - 668 م
- جستينان الثاني (Justinian II) 695 - 685 م

انتهى بالنفي

ليونتيوس (Leontios)	698 - 695 م
تيبيريوس الثالث (Tiberius III)	698 - 705 م
(عودة) جستينيان الثاني (Justinian II Restoration)	705 - 711 م

انحطاط سلطة الأباطرة

باردينس (Bardanes)	713 - 711 م
أنسطاسيوس الثاني (Anastasius II)	713 - 716 م
ثيودوسيوس الثالث (Theodosius III)	716 - 717 م
الأسرة الأيزورية (Dynasty Isaurian)	
ليو الثالث (Leo III)	717 - 741 م
قسطنطين الخامس (IV Constantine)	741 - 775 م
ليو الرابع (Leo IV)	775 - 780 م
قسطنطين السادس (VI Constantine)	
(سملت أمه عينيه وخلعته)	780 - 797 م
إيرينا (نهاية الأسرة) (Irene)	797 - 802 م
نقفور (Nicephorus)	802 - 811 م
ستوراسيوس (Stauracius)	811 م
ميخائيل الأول (Michael I)	811 - 813 م
ليو الخامس (Leo V)	813 - 820 م

الأسرة الفرجية (Dynasty Phrygian)

ميخائيل الثاني (Michael II)	820 - 829 م
ثيوفيلوس (Theophilus)	829 - 842 م
ميخائيل الثالث (Michael III)	842 - 867 م

الأسرة المقدونية (Dynasty Macedonian)

بسيل الأول (Basil I)	867 - 886 م
ليو السادس (Leo VI)	886 - 912 م
الاسكندر (Alexander)	886 - 913 م
قسطنطين بروفيروجينيتوس (Prophyrogenitus Constantine)	912 - 919 م
رومانوس الأول (Romnus I)	919 - 944 م
رومانوس الثاني (Romnus II)	944 - 959 م
بسيل الثاني (Basil II)	959 - 1025 م
قسطنطين الثامن (Constantine VIII)	963 - 1025 م
قسطنطين الثامن (منفردا) (Constantine VIII)	1025 - 1028 م
نقفور الثاني (Nicephorus II)	963 - 969 م
جون الأول تزميسكس (John I Tzimisces)	969 - 976 م
رومانوس الثالث (Romnus III)	1028 - 1034 م
ميخائيل الرابع (Michael IV)	1034 - 1041 م
ميخائيل الخامس (Michael V)	1041 - 1042 م
زو و ثيودورا (Zoe & Theodora)	1042 م
قسطنطين التاسع منوماخس (Constantine IX Monomchus)	1042 - 1055 م
ثيودورا (Theodora)	1055 - 1056 م
ميخائيل ستراتوتيكوس (Michael Stratioticus)	1056 - 1057 م
(نهاية الأسرة المقدونية)	
إسحاق الأول كمينوس (Isaac I Comnenus)	(تنازل)

الأباطرة البيزنطيون في نيكايا (Nicaea)
 ثيودور الأول لسكارس (Theodore I Lascaris)
 1204 - 1222 م
 جون الثالث دوكاس فتاتزيس (John III Ducas Vatatzes)
 1222 - 1254 م
 ثيودور الثاني لسكارس (Theodore II Lascaris)
 1254 - 1258 م
 جون الرابع لسكارس (John IV Lascaris)
 1258 - 1261 م
 ميخائيل الثامن بليولوجس (Michael VIII Palaeologus)
 1259 - 1282 م
 استرجاع القسطنطينية
 1261 م
الأسرة البليولوجية (Dynasty of the Palaeologi)
 ميخائيل الثامن (Michael VIII)
 1261 - 1282 م
 أندرونيكوس الثاني (Andronicus II)
 1282 - 1320 م
 ميخائيل التاسع (Michael IX)
 1293 - 1320 م
 أندرونيكوس الثالث (Andronicus III)
 1328 - 1376 م
 جون الخامس (John V)
 1341 - 1376 م
 جون السادس (John VI)
 1341 - 1379 م
 أندرونيكوس الرابع (Andronicus IV)
 1376 - 1391 م
 (عودة) جون الخامس (restored John V)
 1379 - 1390 م
 جون السابع (John VII)
 1390 - 1425 م
 مانويل الثاني (Manuel II)
 1391 - 1448 م
 جون الثامن (John VIII)
 1425 - 1448 م
 قسطنطين الحادي عشر دراجاسيس (Constantine) Dragases
 1448 - 1453 م XI

1055 - 1059 م
 قسطنطين العاشر دوكاس (Constantine X Ducas)
 1059 - 1067 م
 رومانوس الرابع ديوجينس (Romanus IV Diogenes)
 1067 - 1071 م
 ميخائيل السابع دوكاس (Michael VII Ducas)
 1071 - 1078 م
 نقفور الثالث بوتانياتس (Nicephorus III Botaniates)
 1078 - 1081 م
الأسرة الكمينية (Commenian Dynasty)
 ألكسيوس الأول كمينوس (Alexius I Comnenus)
 1081 - 1118 م
 جون الثاني (John II)
 1118 - 1143 م
 مانويل (Manuel)
 1143 - 1180 م
 ألكسيوس الثاني (Alexius II)
 1180 - 1183 م
 أندرونيكوس (Andronicus)
 1183 - 1185 م
الأسرة الإنجيلية (Dynasty of the Angeli)
 إسحاق الثاني (Isaac II) (خلع)
 1185 - 1195 م
 ألكسيوس الثالث (Alexius III)
 1195 - 1203 م
 إسحاق الثاني (عاد مع ألكسيوس الرابع) (Isaac II restored with)
 1203 - 1204 م (Alexius IV)
 ألكسيوس الخامس دوكاس مرتزفيوس (Alexius V Ducas)
 1204 م (Murtzphius)
 (الحملة الصليبية الرابعة تستولي على القسطنطينية)

استيلاء الأتراك على القسطنطينية سنة 1453 م
وانتهاء الإمبراطورية البيزنطية¹.

الرومان في طرابلس وفزان

سبق أن أشرنا إلى التحدي الإغريقي بزعامة قورينة لسلطة قرطاج الفينيقية في تونس. وقد بينا كيف فشلت ذلك التحدي ثم أشرنا إلى روما ورثته فيما بعد ضمن التركيبة الإغريقية التي ورثتها فسارت بذلك الشوط إلى نهايته. لقد كانت قرطاج تدرك من موقعها الاستراتيجي المهم أهمية مضيق مسينا الصقلي للتجارة العالمية في البحر الأبيض المتوسط. ولذلك فأنها أزعجها أن يبدأ الإغريق بإنشاء مستوطنات لهم في صقلية لأن سيطرتهم عليها كانت تشكل تهديدا خطيرا للتجارة الفينيقية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط. وقد لاحظنا قبل قليل أن قرطاج ذهبت إلى حدة مهادة إغريقية وقورينة والتساهل في إقرار الحدود بينها وبينهم لتتمكن من التفرغ لحرب إغريقية صقلية والسيطرة على هذه الجزيرة المهمة فاستولت قواتها على مسينا المتحكمة في المضيق المسمى باسمها سنة 264 ق.م. ولما كان الرومان في هذه المرحلة التاريخية قد أصبحوا قوة نامية بدأت تملأ محل الإغريق في المرحلة الأولى من تكوين الإمبراطورية الرومانية. فإنهم لم يسكتوا على احتلال قرطاج لمسينا بل خفوا لمكافحة ذلك الاحتلال بوصفهم حماة للإغريق والحضارة الإغريقية وان كان ذلك مجرد ستار لنواياهم التوسعية من جهة ولدفع الخطر عن أبوابهم من جهة أخرى. فكان هذا إيذانا ببدء حرب البونيقية بين روما وقرطاج. واستمرت تلك الحرب طيلة ثلاث وعشرين سنة (264 - 241 ق.م.) وانتهت بخروج قرطاج من صقلية. وبالرغم من هذه الخسارة الفادحة فقد استطاعت قرطاج أن تشمر عن ساعدها من جديد. وبعد مضي ثلاث وعشرين سنة على انتهاء الحرب البونيقية الأولى. لتبدأ الحرب البونيقية الثانية ضد روما (218 - 202 ق.م.). وتميزت هذه الحرب الثانية بغزو القائد القرطاجي هانيبال لإيطاليا عبر جبال الألب ووقوفه على أبواب روما. ولكن الرومان استماتوا في سبيل الدفاع عن مدينتهم. ولم تلبث حملة هانيبال أن باءت بالفشل فاغتنم الرومان هذه الفرصة وغزوا شمال إفريقيا بحملة يترأسها سكيبيو أفريكانس (Scipio

1- Baynes, H. Norman & Moss, H. St. L. B. (Editors), Byzantium, Oxford University Press, Oxford , 1st issued as an Oxford University Press paperback 1969, pp 422423-.

(Africanus). وما إن نزل القائد على الشاطئ الأفريقي حتى خالف مع مسينسا (Massinissa) أحد رؤساء القبائل الليبية الغربية. وانتصرت القوات المتحالفة على القرطاجيين انتصاراً حاسماً في موقعة زاما فلم يبق أمام قرطاجة إلا أن تفاوض الرومان المنتصرين لتتخذ نفسها.

وانتهت المفاوضات مؤكدة معنى القول التاريخي «الويل للمغلوب» فقد فرض الرومان المنتصرين شروطاً تضمن لهم عدم انتعاش قرطاجة مرة أخرى. فرضوا عليها أن تتخلى عن أسبانيا. وأن تدفع غرامة كبيرة وتخفف عدد سفن أسطولها إلى عشرة سفن فقط. ولكي يثقل الرومان قرطاجة نهائياً. شجعوا مسينسا في أطماعه الإقليمية فاعترفوا به ملكاً لملكة نوميديا المستقلة (= الجزائر وبعض أجزاء تونس). ورغم أنهم سمحوا لقرطاجة بالاحتفاظ بمستوطناتها الفينيقية على الساحل الطرابلسي. ألا أنهم ضمنوا اتفاقية الصلح بينهم وبينها هذه الجملة المطاطة: «تشمل ملكة نوميديا كل المدن والمناطق التي سبق لمسينسا وأجداده إن ملكوها». وفي الوقت ذاته حظرت المعاهدة على قرطاجة شن أية حرب إلا بعد الاستئذان من روما.

ولم يكن مسينسا في حاجة لمزيد من التشجيع. فقد كان يتمتع بذكاء خارق وقوة جسمانية فائقة استخدمها إلى أقصى حد ممكن في سبيل تحقيق حلمه في إقامة ملكة ليبية موحدة. ونجح في تحويل عدد كبير من البدو الليبيين إلى مزارعين مستقرين وعمم بينهم استعمال الأدوات والطرق الزراعية الفينيقية فتمكن بذلك من إقامة ملكة ليبية امتدت حدودها أثناء حياته من شرقي المغرب الأقصى إلى غربي برقة. ولكن بقاء قرطاجة مستقلة رغم عجزها كان بمثابة شوكة في جانب مسينسا فبدأ يتعدى على المناطق التي ظلت تابعة لقرطاجة بموجب المعاهدة. وبدأت قرطاجة تشكوه إلى روما بعد كل عدوان. ولكن روما كانت في معظم هذه المناسبات تقرر في صالح مسينسا. وفي الستينات من القرن الثاني قبل الميلاد أحس مسينسا أن بوسعه ضم المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي إلى مملكته. فادعى أنه يريد المرور بها لمطاردة ثائر هارب إلى منطقة برقة.

ولكن قرطاجة رفضت أن تسمح له بذلك فاعتبر هذه الرفض حجة تبرير إعلان الحرب وهاجم المستوطنات الفينيقية على ساحل منطقة طرابلس. ولكن قرطاجة استطاعت. رغم ضعفها. أن تدافع عن محمياتها وتصد غارة مسينسا. كما أنها استطاعت بعد احتجاجات كثيرة لدى مجلس الشيوخ الروماني أن تنجح في إقناع المجلس بإرسال لجنة تحقيق تنظر في المشكلة. وجاءت اللجنة ودرست الموقف ولكنها قررت في صالح مسينسا. فأصدرت روما. بناء على توصيات اللجنة. أمراً لقرطاجة بالتخلي عن المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي وتسليمها لمسينسا سنة 162 ق.م. وبدفع غرامة له قدرها خمسمائة (تالنت). نظير احتفاظ قرطاجة فيما مضى بتلك المستوطنات بصفة غير شرعية.

وفي سنة 150 ق.م. استفز مسينسا قرطاجة حتى اضطرها لمهاجمته بجيش غير نظامي استطاع مسينسا أن يقضي عليه بسهولة. واستغلت روما فرصة نقض قرطاجة للمعاهدة بمهاجمة مسينسا دون إذن مسبق من روما فقامت القوات الرومانية بمهاجمة قرطاجة في حرب ثالثة جديدة هي الحرب البونيقية الثالثة التي استمرت ثلاث سنوات وانتهت سنة 136 ق.م. بأسوأ زوال قرطاجة من عالم الوجود وتسويتها بالأرض. وحتى تحول روما دون استئثار خطر خليفة مسينسا فيما لو استولى على بقية الشمال الأفريقي. شكلت ولاية رومانية مما كان قد تبقى لقرطاجة من أملاك في تونس. وعينت الحدود بين هذه الولاية وبين ملكة نوميديا بحفر خندق متصل فيما بينها عرف باسم خندق سكيبيو (Fossa Scipionis) واتخذت مدينة يوتيكا (Utica) الحرة. الواقعة على بعد عشرين ميلاً إلى الشمال من موقع قرطاجة. عاصمة لهذه الولاية.

أما نوميديا فإنها أصبحت في عهد مسينسا ملكة كبيرة يسكنها شعب البدو الفساة المتأخرين باستثناء سكان المدن الثلاث في القسم الشرقي من نوميديا؛ فقد كانوا متأثرين بالحضارة الفينيقية. وكانت الزراعة قبل مسينسا موجودة على نطاق ضيق ولكن مسينسا شجع انتشارها وفرضها على البدو النوميديين بعد أن فرض عليهم الاستقرار. فبدأ

النوميديون يقتبسون الكثير من أساليب الزراعة وأدواتها عن الفينيقيين. وكانت أشهر مزروعاتهم القمح والشعير. ولكن معظمهم - حتى المناطق الصالحة للزراعة - ظلوا يفضلون العمل بالرعي وتربية الحيوانات التي كانوا ينزلون بها من السهول في الشتاء ويصعدون بها إلى الجبال والغابات في الصيف. وكانت أشهر تلك الحيوانات، الخيل والنعاج والماعز والبقر.

وكان النوميديون يعيشون في خيام من الجلد أو أكواخ من الصيد والعيان. وكان الرجل منهم يقيمون أكواخهم في بعض الحالات على العريات إما المستقرين فكانوا يقيمون في أكواخ دائمة ثابتة أو في بيوت ذات زوايا أربع أو في كهوف طبيعية أو صناعية.

وكان السكان آنئذ. كما هم اليوم، أشداء أصحاء، محبين للحرب. يعيشون أساسا على الحليب والجبن ولحم الصيد والمنتجات البرية المتنوعة ودقيق القمح والشعير وربما أيضا زيت الزيتون. وكانوا كذلك يأكلون الحليون والجراد والعسل. أما الأبقار والأغنام فإنها كانت عماد ثروتهم فلم يكونوا يذبحونها ليأكلوها وإنما كانوا يقدمون التضحيات للآلهة فيأكلها المتعبدون. وربما كانوا أيضا يأكلون لحوم الكلاب. وكان فقراؤهم يلبسون الجلود بينما كان الأغنياء يرتدون الملابس الصوفية. وكان النوميديون يتحلون بالعقود والأساور والقلائد التي تشبه التي سابقتها في عصر ما قبل التاريخ وكانوا يلبسون خواتم اليد وخواتم أصابع القدم. وحلق الأذن المصنوع من النحاس أو البرونز أو الحديد. وكانت أدواتهم المنزلية في الغالب أما من الخشب أو من الفخار البدائي الذي كان يصنع باليد ويشوى على نار مكشوفة. وكان لونه أما رماديا أو بنيا أو اسود ولم يكن من حيث الجودة والإتقان يختلف عن فخار العصر الحجري الحديث.

ويبدو أن معظم أدواتهم وأسلحتهم كانت من الحديد غير أننا نجد من الصعب علينا أن نقدر إلى أي مدى استمروا في استعمال الأدوات الحجرية. والأرجح أن شمال غربي أفريقيا لم يمر بعصر النحاس ولا بعصر البرونز. وربما كانت الأدوات القليلة التي وجدت هنا من هذين المعدنين من صناعة أجنبية مستوردة.

وكانت الحربة ذات الرأس الحديدي هي السلاح الرئيسي الذي يستعمله النوميدي في الحرب أو الصيد. وكان النوميدي يحمل حراب وخنجرا وترسا صغيرا مستديرا. ولم يكن يحمي رأسه أو جسمه أي نوع من الدروع أو الخوذات.

ونحن نعرف أن الفرسان النوميديين الذي خدموا القرطاجيين أولا ثم الرومان ثانيا كانوا مسلحين على النحو الذي ذكر.

وبعد وفاة مسينسا في السنة الأولى من الحرب البونيقية الثالثة (149 ق.م.) تلاه على عرش نوميديا ابنه ميسبسسا (Micipsa) الذي تخلى عن سياسة أبيه التوسعية وتابع سياسة تشجيع الزراعة وتحويل البدو الليبيين إلى مزارعين مستقرين.

وفي عهده تمتعت المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي بقسط وافر من الحرية. فهي وإن كانت قد استمرت تدفع للملك الجديد ما كانت اعتادت على دفعه من ضرائب لقرطاجة إلا أنها سمح لها الآن أن تحكم نفسها بنفسها وفقا لشرائعها وعاداتها الفينيقية. ويعزى سبب تساهل الملك النوميدي الجديد في معاملة المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي إلى بعدها عن سرتا (Cirta) (=قسنطينة). عاصمة ملكته. ولكن ربما كان ذلك التسامح سياسة متعمدة تهدف إلى ترك هذه المراكز الحضارية الفينيقية تعيش في سلام حتى تبقى بمثابة مراكز إشعاع حضاري فتستفيد هي ذاتها وتفيد البلاد بأسرها. والواقع أن أكبر فائدة حققها الحكم النوميدي لها هو انه مكنها من الخروج عن العزلة التي كانت قرطاجة تفرضها عليها إلى الاتصال بنوميديا وروما في وقت واحد. وجدير بالملاحظة أن هذه المرحلة هي مرحلة التوسع والتقدم الكبيرين اللذين أحرزتهما صبراتة لأول مرة في تاريخها نتيجة لرواج تجارتها مع إيطاليا وغيرها من بلدان البحر الأبيض المتوسط.

وفي سنة 118 ق.م. توفي الملك ميسبسسا تاركا ملكته ليشتترك في حكمها ابناه اذربال (Adherbal) وهيميسال (Hiempsal) وابن أخيه

يوغرتا (Jugurtha) ابن مانستبال. وكان يوغرثا هذا طموحا وقاسيا فبدأ حكمه بقتل هييمبسال وطرد اذريال الذي هرب إلى روما مستنجدا بها لتسوية الموقف. ولكن يوغرثا كان له أصدقاء متنفذون من الرومان في مجلس الشيوخ الروماني مما جعل ذلك المجلس يتخذ حلا وسطا قسمت ملكة نوميديا بموجبه إلى قسمين: شرقي ويشمل منطقة طرابلس لاذريال وغربي ليوغرتا. ولكن يوغرثا لم يلبث أن استأنف القتال ضد اذريال وحاصره. واكتفت روما في بداية الأزمة الجديدة بالاحتجاج الشفوي. ولكن عندما قتل اذريال وذبح عدد من أعوانه رجال الأعمال الرومان المقيمين في مملكته حركت روما وبدأت الحرب بينها وبين يوغرثا، ولكنها كانت حربا قصيرة انتهت بخيانة صاحب موريتانيا _ وهو حمو يوغرثا _ لصهره وتسليمه لروما حيث شنق. وعينت روما بدلا منه أحا وديعا له من أبيه اسمه جودا (Gauda).

وفي غمرة هذه الأحداث كانت لبدة قد تحققت أن مصلحتها تقضي بإقامة علاقات حسنة مع الرومان. ولذلك فقد اتصلت بهم وعرضت عليهم عقد معاهدة صداقة وخالف بينها وبينهم فوافق الرومان على هذا الطلب فورا سنة 111 ق.م. واغلب الظن أن أويا وصبراتة سلكتا سلوكا مشابها في الوقت ذاته وفي سنة 106 ق.م. ناشدت لبدة روما أن ترسل لها حامية للدفاع عن المدينة ضد مؤامرة قيل أن شخصا معيننا اسمه هملقار (Hamilcar) كان يعدها داخل المدينة مع عدد آخر من أنصار يوغرثا. واستجابت روما للنداء وأرسلت حرسا رومانيا تركز في لبدة لأول مرة في تاريخ طرابلس. ولا بد أن يكون هذا الحرس قد سحب بعد انتهاء الإضطرابات لأننا لا نسمع عنه شيئا بعد ذلك؛ أما معاهدة الصداقة والتحالف فقد بقيت قائمة. ويبدو أن المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي أصبحت منذ مطلع القرن الأول الميلادي تتمتع باستقلال اسمي تحت الحماية الرومانية؛ فنحن نسمع قبيل منتصف ذلك القرن عن نجاح لبدة في إقناع روما بالتدخل لدى الملك جوبا الأول (Juba I). ملك نوميديا. ليتنازل عن بعض أجزاء منطقة لبدة التي كان قد استولى عليها بطريقة غير شرعية.

ولما نشبت الحرب الأهلية الرومانية بين يوليس قيصر وبومبي سنة 49

ق.م. وقف الملك جوبا الأول بكل ثقله إلى جانب بومي وبادر بحاربة القوات التي كان يوليس قيصر قد بعث بها ضد قوات لبومي كانت قد استولت على ولاية افريقية الرومانية. فهزمتها وقتل قائدها. وراح هو وقائد قوات بومي يعرزان وسائل دفاعهما بينما استولى بعض أنصاره على لبدة. ولكن الحال لم يطل بهم ففقد انهزم بومي أمام يوليس قيصر في معركة فرسالس (Pharsalus) سنة 48 ق.م. ففر إلى مصر حيث قتله أعوان بطليموس الثاني عشر في مدينة الإسكندرية. ومع نهاية سنة 47 ق.م. كان يوليس قيصر قد فرغ من إقرار الأمور المعلقة في الشرق فقدم إلى تونس في شهر أكتوبر - تشرين الأول من السنة نفسها حيث مكث يعد العدة ويتدبر الأمر حتى شهر ابريل - نيسان من السنة التالية عندما اشتبك مع قوات بومي المتحالفة مع الملك جوبا الأول وهزمتهم جميعا في معركة ثابسوس (Thapsus) (=رأس الديماس بتونس) مما حمل القائدين الرومانيين وحليفهما الملك جوبا الأول على الانتحار فوق الشمال الإفريقي بأسره في يد يوليس قيصر.

وقبل أن يعود يوليس قيصر إلى روما تريت بعض الوقت لتنظيم الأمور في الشمال الإفريقي. ولكي يكافئ الأصدقاء ويعاقب الأعداء الذين كانوا ضالعين مع خصمه بومي. فألغى ملكة نوميديا وضم معظم أراضيها إلى روما وسماها ولاية افريقية الجديدة (Africa Nova) وعين المؤرخ الروماني سلوست (Sallust) أول حاكم لها بينما أعاد تنظيم ولاية افريقية الرومانية التي كانت قد أقيمت على أملاك قرطاجنة بتونس وسماها افريقية القديمة (Africa Vetus). أما لبدة التي كانت قد ضلعت مع الملك جوبا الأول ودخلت في حلف معه ومع أنصار بومي من الرومان؛ فان يوليس قيصر فرض عليها جزية سنوية عينية قدرها عشرة آلاف هكتولتر من زيت الزيتون أي ما يعادل ثلاثة ملايين جنيه لبيي.

وهناك ما يحملنا على الظن أن أويا وصبراتة كانتا شريكتين لللبدة في سلوكها وبالتالي في تسديد هذه الجزية السنوية الضخمة التي يصعب علينا أن نتصور أن مدينة واحدة مثل لبدة كانت قادرة على تسديدها

بمفردها.

وهكذا أصبحت المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي جزءاً من الإمبراطورية الرومانية مثلها في ذلك مثل بقية الشمال الإفريقي بما فيه مصر. وبعد مقتل يوليس قيصر سنة 44 ق.م. سادت روما اضطرابات وخصومات بين أنطوني وأكتافيوس؛ وانتهت بانتصار الأخير في معركة اكتيوم (Actium) سنة 31 ق.م. ولم تسلم الولايات الرومانية بإفريقيا من لم الفوضى وتلك الضربات خلال الثلاث عشر سنة المذكورة (44 - 31 ق. م.)؛ فكثيراً ما سفكت الدماء وانتقلت السلطة من يد لأخرى. ولكن منطقة طرابلس لم تتورط في شيء من ذلك. لأنها على ما يبدو كانت قد تعلمت الدرس من تورطها في النزاع بين يوليس قيصر وبومبي. وبانتصار أكتافيوس الذي أصبح يلقب أوغسطس بدأ عهد سلام طويل عم أرجاء الإمبراطورية الرومانية فاستقرت الأحوال. وتفرغ الناس للبناء والعمران والتمتع بثمار الاستقرار والازدهار.

الحدود الرومانية في منطقة طرابلس:

كان أوغسطس رجلاً يعرف (كيف يسرع في تريث) ويعرف (كيف يتراجع دون أن يريق ماء وجهه)². ولذلك فقد خلف لإمبراطوريته نظاماً جيداً ظل فعالاً بعد وفاته سنة 14 م. حتى نهاية السلالة السويرية الأفريقية سنة 235 م. وعاشت بعض أثاره. من مثل مشاركة مجلس الشيوخ للإمبراطور في الحكم. حتى نهاية القرن الميلادي التاسع ولذلك فإن أوغسطس. بعد أن استقر له الأمر. قام بدراسة أحوال الولايات المختلفة وتوصل سنة 27 ق.م. إلى اتفاقية مع مجلس الشيوخ الروماني وضعت بموجبها كافة الولايات التي قدر أنها تحتاج إلى حماية عسكرية تحت إشراف الإمبراطور مباشرة بينما وضعت تحت إشراف المجلس جميع الولايات التي قدر أنها لا تحتاج إلى دفاع عسكري. وهكذا أصبحت ولاية إفريقية القديمة (تونس) المسماة تابعة إدارياً لمجلس الشيوخ الروماني. وجدر الإشارة هنا إلى أن موقع قرطاج نفسها ظل

2- توينبي. أرنولد. تاريخ الحضارة الهلينستية. ترجمة رمزي جرجس وصفر خفاجة. سلسلة الألف كتاب. مكتبة الأجلو المصرية. 1963. ص 217.

مهجوراً منذ أن دمرت سنة 146 ق.م. وصب مدمروها اللعنة على موقعها.

ولكن ما كان يتحلى به ذلك الموقع من ميزات وما كان له من تقاليد جذب الرومان إلى أن يتناسوا اللعنة التي صبت عليه فبدأوا يخططون لإقامة مستوطنة جديدة تحت ستار اسم هو جونونيا (Junonia). وفي سنة 122 ق.م. تولى المصلح السابق جايوس جراكوس (Gaius Gracchus) قيادة حشود من المستوطنين الرومان بنفسه وسار الجميع نحو موقع قرطاج رغم ما ظهر لهم من إشارات كبيرة كانت بمثابة أمارات تدل على عدم موافقة الآلهة على تلك الخطوة. ويخبرنا بلوتارك (Plutarch) «إن العلم الذي كان في مقدمة الموكب تنازعت زوبعة طارئة ومزقته قطعاً بالرغم من أن حامله تمسك به بكل قواه. وفي الوقت ذاته أزاحت الزوبعة كل الضحايا التي كانت على المذابح وعصفت بها إلى خارج العلامات التي كانت قد أقيمت على حدود موقع المدينة. وحتى تلك العلامات نفسها انقضت عليها الذئاب وحملتها بعيداً عن أماكنها». وأذن فلا غرابة إذا فشل المشروع فقد كان مشروع من نوعه يحتاج إلى وجود حكومة أصلب من الحكومة التي كانت الآلهة الرومانية والساسنة الرومانيون قد أقاموها في روما. وعندها انتصر يوليس قيصر على خصومه سنة 46 ق.م. في معركة ثابسوس (Thapsus) في تونس أعيد تأسيس قرطاج لان اللعنة التي كانت قد صبها عليها مدمروها أصبحت الآن في طي النسيان. وفي عهد أوغسطس الطويل الذي تميز بالحكمة والتعقل (27 ق.م. - 14 م.) انتعشت مدينة قرطاج من جديد وعادت إلى منزلتها كواحد من المراكز التجارية والدينية في العالم المتحضر. أما ولاية إفريقية الجديدة فقد ألغيت وأعاد أوغسطس محلها ملكة نوميديا وعين ملكاً عليها هو جوبا الثاني بن جوبا الأول مكافأة له على ما كان قدمه لأوغسطس من خدمات أثناء النزاع بين الأخير و أنطوني.

وكان يوليس قيصر قد بعث بجوبا الثاني مع التوأمين شمس وقمر. ابني مارك أنطوني وكليوباترة. وعدد آخر من الرهائن إلى روما بعد معركة ثابسوس. ونشأ هؤلاء الثلاثة في روما كرومانيين ثم زوج أوغسطس جوبا الثاني من الأميرة قمر. وعاش العروسان في روما حتى ابتسم لهما الحظ ثانية على

يدي أوغسطس فانتقلا إلى مقرهما الملكي في مملكة نوميديا التي بعثت من جديد. ولكن أوغسطس لم يلبث أن أعاد النظر في هذا الأجراء فطلب إلى جوبا الثاني سنة 25 ق.م. أن يتخلى عن ملكته وان يأخذ بدلا منها ملكة مورتانيا (=المغرب الأقصى). ولبي الملك الطلب فانتقل مع زوجته واختارا مستوطنة «إبول» القرطاجية القديمة عاصمة لها وسميهاها قيصرية³.

والمعروف عن الملك جوبا الثاني أنه (كان أديبا دارسا نذر نفسه للفن والعلم... وكان يتقن الكتابة في كل من اللغات الفينيقية واللاتينية واليونانية كما انه كان مستغرقا في دراسة الجغرافيا وعلوم النبات والتاريخ والآثار واللغات وكان الدارسون والفنانون دائما موضع الترحيب والتكريم في بلاطه. وجمع كل الروايات على انه كان ملكا سعيدا مسالما محبوبا للغاية. ويبدو مع ذل انه كان منقادا لزوجته (فهل كانت قمر جميلة جمال والدتها ؟ لم نبأ بشيء من هذا). إذ يظهر انه كان هناك بعض الخلاف بين الزوجين الملكيين. كخلافهما على أي منهما كان دمه أنبل أو أشد زرقة من دم الآخر فهي سليلة الفراعنة. وهو سليل الملك مسينسا الذي قاد هجوما للفرسان وأنجب عدة أطفال وهو في سن الثمانين. ومن الثابت أن الملكة قمر فازت في هذا النزاع لأننا نجد الملك جوبا الثاني يحاول تزوير الجغرافيا يجعل أنهار ملكة مورتانيا روافد تغذي نهر النيل المصري. وذلك ضرب من الاحتيال يشبه ما فعله علماء الأنساب المحتصون بالعائلة البريطانية المالكة إذ أعادوا نسب هذه العائلة إلى الملك داود! ولاشك أن «قمر» لم تنس مولدها ولا موطنها الأصلي. ولذلك أصرت على أن يقام معبد لايزيس ضم تمساحا مقدسا جيء به خاصة من النيل. كما أنها نفذت رغبتها هي في تسمية طفلها الأول فسمته «بطليموس». ولكن لا «إيزيس» ولا «التمساح المقدس» كانا قادرين على إنقاذ الأمير الإفريقي من جنون غضب «كاليجولا» الذي أرداه قتيلا في سجن روما المظلم⁴.

ومقتل الملك جوبا الثاني انتهى عهد الملوك الإفريقيين سنة 40 م. عندما

3- مكانها اليوم قرية لصيد السمك تسمى تشرتشل على بعد حوالي مائة ميل إلى الغرب من مدينة الجزائر.

4- ويللارد. جيمس. الصحراء الكبرى. الطبعة الأولى. بيروت. 1967. ص 90-93.

قرر الرومان أن أفريقيا غنية إلى حد لا يسمح بالاستمرار في إشراك الملوك المحليين في حكمها. وانه لابد من فتح الأراضي الإفريقية أمام الاستعمار الروماني. وكان أول واجب على الحكومة الرومانية هو أن تشيع الطمأنينة في تلك الأراضي لجعلها صالحة للاستثمار. وقد درج الاستعمار الروماني على هذا النهج منذ عهد أوغسطس واستمر كذلك في عهد خلفائه. ويظهر أن الرأسماليين الرومانيين حازوا قصب السبق في هذا المضمار فأنشأوا الضياع الكبيرة الواسعة (Latifundia) في طول الأرض الإفريقية وعرضها. وقد لاحظ بلايي أن تلك الضياع كانت المظهر الواضح في حياة افريقية الزراعية⁵.

أما مصير الأرض النوميديّة. ومنها منطقة طرابلس. بعد انتقال جوبا الثاني إلى مورتانيا فكان أن ألحقت بولاية افريقية القديمة التي أصبحت تعرف باسم افريقية فقط. وظلت هذه الولاية تابعة لإداريا لمجلس الشيوخ الروماني الذي كان يعين بروقنصلا (Proconsula) لحكمها. ولكن ضم معظم الأراضي النوميديّة إليها إلى على البروقنصل مسؤوليات جسيمة في حفظ الأمن على حدودها الواسعة التي صار يقيم ضمنها عدد غير قليل من القبائل النوميديّة البدوية الشرسة مما حمل أوغسطس على الخروج عن العرف السائد وعن مبدئه القائل بعدم وضع قوات عسكرية تحت تصرف الحكام الذين كان يعينهم مجلس الشيوخ فوضع فرقة أوغستا الثالثة (Legio III Augusta) المشهورة تحت تصرف حاكم الولاية.

واتخذت هذه الفرقة منذ سنة 81 م. حتى تاريخ حلها مؤقنا سنة 238 م. مدينة لمبزي (Lambaesis) في الجزائر مقرا لرئاستها كما أنها عادت لذلك المقر بعد أن أعيد تشكيلها سنة 253 م. وكانت إحدى فصائلها. أي ما يعادل عشرها تقريبا. تتركز عادة في قرطاجنة لتكون بمثابة حرس لحاكم ولاية افريقية. وكانت روما تعزز تلك الفصيلة بفصيلة مدنية مكونة من ألف رجل غابتها القيام بإعمال الشرطة. وكانت الفرقة الرومانية

5- رستوتوفزف. م. تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي. ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ص 389.

تتألف إسميا من حوالي (5600) رجل روماني يضاف إليهم مثل عددهم من رجال القوات المساعدة من المرتبة الثانية. وكانت فرقة أوغستا الثالثة هذه كافية للشمال الإفريقي بأسره ابتداء من حدود مصر في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب يساعدها في ذلك عدد من الكتائب المساعدة التي كان بينها كتيبتان من أصل بريطاني: إحداها من الفرسان والثانية من المشاة. وعدد آخر من القوات المحلية غير النظامية لهذه الوحدات النظامية كان هنالك الجنود المتقاعدون الذين نشأت عنهم نواة سكان المزارع المحصنة والمستوطنات الزراعية. ويقدر أن القوات المسلحة في هذه المساحة الواسعة من الشمال الإفريقي لم تزد عن سبعة وعشرين ألف مقاتل باستثناء الجنود المتقاعدين العاملين في المزارع المحصنة، وباستثناء الفصائل التي كانت تعزز حراسة الحصون والمعازل العسكرية في المرتفعات الداخلية المطلة على الصحراء.

ونشطت هذه الفرقة منذ قدومها فعينت حدود الولاية مؤقتا بحفر خندق حولها وأقامت لجنودها معسكرات في المواقع الاستراتيجية. وبدأ مهندسوها ببناء شبكة من الطرق والحصون. وكان على هذه الفرقة المؤلفة من حوالي اثني عشر ألف جندي روماني وحوالي خمسة ألف جندي إضافي من القوات المساعدة أن تحكم منطقة تزيد مساحتها عن مليون ونصف مليون ميل مربع لمدة قرنين ونصف قرن من الزمن قامت خلالها بدور الجندي والشرطي والمهندس والعامل؛ حتى إن قصة الشمال الإفريقي في عصرها إنما هي قصة هذه الفرقة نفسها. يقول جيمس ويللارد في حديثه عن الفرقة⁶:

«كانت الفرقة الرومانية عالما صغيرا كاملا قائما بحد ذاته. بعقلية تعاونية وروحية تعاونية بالفعل. فالجندي من بداية مدة الخدمة إلى آخرها (وهي 25 سنة) لم يكن عرف عالما غير عالم المعسكر. إذ لم يكن له منزل ولا زوجة ولا عائلة. وليس في التاريخ وحدة عسكرية نظمت مثل هذا التنظيم الفعال لأداء واجباتها. فقد كانت الفرقة في الواقع معصومة عن الخطأ تقريبا عصمة الآلة. ونادرا ما تجد أعضائها يتصرفون غير تصرف الدواليب

6- ويللارد. جيمس. الصحراء الكبرى. الطبعة الأولى. بيروت. 1967. ص 95-108.

وأسنان الدواليب المتشابكة بإحكام في آلة كبيرة من آلات الحرب. حتى إذا ثاروا على النظام كان عقابهم كما سنرى فيما بعد وحشيا».

والجيش الروماني الذي كان أقوى تنظيم عسكري ابتدعه البشرية في تاريخها القديم كانت قوامه الفرقة. وكانت مهمة القتال للفرقة شأنها عرضيا فقط. أما في وقت السلم فإن هذا الجيش كان مؤسسة أغنى عنها بما كان يضم من مهندسين وبنائين ومعماريين وقائمين بمهمات التمدين والتحصير. وكان الانخراط في سلك فرقة أوغستا الثالثة مقصورا على الرومانيين في بداية الأمر ثم فتح المجال أمام أبناء البلاد الأصليين للانخراط في سلكها. وكان عضو الفرقة بغض النظر عن جنسيته ينذر نفسه لوحده كما ينذر الراهب نفسه للسلك الذي يختاره. وكان لكل فرقة مستشفى بهيئة طبية فيها الجراحون وأطباء الأسنان وأطباء العيون.

وإذا ما قومنا جهود الجيش الروماني في تمدين مناطق الإمبراطورية المختلفة فانا سنجد أن أفريقيا كانت الميدان الذي قام فيه هذا الجيش بأعظم إنجازاته. فقد نجح في تحويل منطقة من أكثر المناطق تأخرا إلى ولاية من أكثر ولايات الإمبراطورية تمدنا وغنى وازدهارا - ولاية أخذت تخرج الجنود والأباطرة والقدسيين والفلاسفة والكتاب إلى أن دمرتها الحروب وردتها إلى حالتها الأولى. وكل حولات أفريقيا هذه. من أرض (سكان الكهوف الذين ينعمون كالخفافيش) وأرض العشائر الذين كان طعامهم الرئيسي الجراد الجفف المسحوق. إلى أرض المدن والقرى والمزارع الرائعة - كل هذه التحولات كانت من صنع فرقة أوغستا الثالثة فهذه العصبية الصادقة من الجنود لم تحمل فقط القانون والنظام إلى المناطق الأهلة في الشمال الإفريقي بل غزت الصحراء وردت حدودها إلى الورا حتى تخوم لم تبلغها من قبل ولا من بعد.

هذه الفرقة الجبارة لم يطل بها الانتظار بعد دخولها الأراضي الأفريقية لكي تمارس فنها العسكري؛ فقد سجلت أول انتصار لها سنة 21 ق.م. وفي السنة التالية كان عليها أن تخوض حربا بدأت بين القبائل الموريتانية وامتدت على طول حدود ولاية افريقية، وخرت الفرقة برئاسة قائدها كرنيليوس بلبوس (Cornelius Balbus) إما من أوبا أو من صبراتة وتوجهت إلى

فزان عن طريق غدامس - عبر جبال الحمادة الحمراء - إلى إدري في وادي الشاطئ - عبر كثنان أباري إلى جرما. وقد نجحت هذه الحملة في هذه الحملة في الاستيلاء على غدامس وفي مفاجأة جرما ودخولها وتخريب زنككرا⁷. وتبدو لنا هذه الحملة الرومانية ناجحة نجاحا مؤقتا إذا اعتبرنا أنها كانت تهدف للرد فقط. كما تبدو فاشلة إذا اعتبرنا أنها كانت تهدف لإخضاع الجرامنتيين وفتح بلادهم لأننا لا نلبث أن نسمع عن حملة أخرى قامت بها الفرقة ضد الجرامنتيين سنة 15 ق.م.

وبعد موت نيرون سنة 68 م. قاست الإمبراطورية الرومانية سنة حرب أهلية تتابع خلالها أربعة من الأباطرة على عرش الإمبراطورية وتورطت قيادة فرقة أوغستا الثالثة في البيل مع هذا الإمبراطور أو ذلك ما صرفها مؤقتا عن الاعتناء بشؤون أفريقيا المحلية. فاعتنمت كل من لبد و أوبا تلك الفرصة لتسوية خلاف على الحدود بينهما بالقوة فاشتبكت قواتهما وتطور النزاع إلى حرب كبيرة أجم نيرانها ما كان بينهما من تنافس جاري. ورأت أوبا أنها لم تكن كفوا لقوات لبد فاستعانت بالجرامنتيين الأثداء. وقدم هؤلاء فحاصروا لبد وخربوا ودمروا كل منطقتها ما خارج أسوارها. وخرت روما فأرسلت قوة بقيادة فاليريوس فستوس (Valerius Festus) أنقذت لبد وسوت الخلاف بينها وبين أوبا وطاردت الجرامنتيين ودخلت فزان في الأرجح عن طريق بوجيم - هون⁸. ويبدو أن حملة فستوس هذه نجحت في تحقيق أغراضها فنحن نسمع بعدها بقليل عن استخدام الرومان لفزان كقاعدة لحملة بعيدتي المدى إلى دواخل القارة الأفريقية:

1- الحملة الأولى قامت في عهد الإمبراطور دوميتيان (Domitian 81-96 م) بقيادة سويليوس فلاكوس (Suellius Flaccus) قائد عام فرقة أوغستا الثالثة الذي توغل جنوبا عبر الصحراء الليبية لمسيرة ثلاثة أشهر حتى وصل إلى بلاد من أسماهم «بالاثيوبيين» قاصدا بهم أبناء أفريقيا السوداء.

7- احتفل بلبوس بما أحرزه من نصر في هذه الحملة بعد عودته في 27 مارس سنة 19 ق.م.
8- كانت هذه الحملة في بداية عهد الإمبراطور فسبسيان (69-79 م).

2- والحملة الثانية بقيادة بوليس متيرنس (Julius Maternus) أحد أبناء لبد. الذي سار بقواته من لبد حتى بلغ جرما وقام بصحبة ملك الجرامنتيين بغارة على الإثيوبيين جلب العبيد. وبعد أن سارا طيلة أربعة أشهر إلى الجنوب وصلا إلى منطقة (إثيوبية) أسماها «أجسيمبا» (Agysimba) حيث «يتجمع العديد من وحيد القرن». ولاشك أن متيرنس كان يهدف من القيام بهذه الحملة إلى التعرف عن كذب على طرق القوافل. ويقول جيمس ويلارد في الحديث عن هذه الحملة:

«لقد انطلق القائد الروماني من «جرما». عاصمة الجرامنتيين القديمة. على بعد خمسمائة ميل جنوبي مدينة طرابلس. ثم سار بعد ذلك جنوبا مدة مائة وعشرين يوما. وقد روى لنا أن الطوابير الرومانية قطعت مسافة خمسمائة ميل من طرابلس إلى «جرما» في عشرين يوما. وكان معدل سيرها إذن خمسة وعشرين ميلا في اليوم. وهو المعدل المألوف للفرقة الرومانية حين جد السير. ولا يمكننا أن نتوقع محافظة طابور «متيرنس» على هذه السرعة عبر منطقة «آبير» [في النيجر] الجبلية. ولكن لدينا قاعدة للمقارنة في الأوقات التي قضاها المسافرون الآخرون في اجتياز الطريق نفسها وأول الأوروبيين الذين رحلوا بعد «متيرنس» جنوبا من «جرما» هما الميجر «دنهام» والكابتن «كلابرتون» اللذان قطعوا الألف ميل إلى بحيرة تشاد في ثمانية وستين يوما في رحلة الذهاب. وفي واحد وستين يوما في رحلة الإياب. وإذن فان دنهام وكلابرتون كانا يسيران بسرعة معدلها أكثر قليلا من خمسة وعشرين ميلا في اليوم. ما يعتبر سيرا طبيعيا في الصحراء. فإذا استطعنا أن نفترض أن رجال الدورية الرومانية كانوا يسيرون بمعدل خمسة وعشرين ميلا في اليوم (ولم يكن لهم عذر في التلكؤ على الطريق نظرا للخلاء الذي يجتازونه) فإن مجموع ما ساروا يبلغ ألفا وثمانمائة ميل ما يمكن أن يكون قد بلغ بهم حتى نهر الكونغو. ولكن هذا يصعب تصديقه. فإذا سمحنا لهذا الطابور ببعض أوقات الراحة والاستكشاف والتواءات الطريق أمكنه بسهولة أن يصل إلى بحيرة تشاد سالكا طريق القوافل القديمة: مرزق - مدامه - بلمه - أغامد. وهي كما يقول النص مسافة تزيد قليلا

عن ألف ميل باتجاه الجنوب، وهناك احتمال آخر إذا كانوا قد ساروا باتجاه الجنوب الغربي سالكين طريق غات -الهجار- أدرار، وهي مسافة تبلغ نحو ألف وثلاثمائة ميل، فعندئذ يمكن أن يكونوا قد بلغوا نهر النيجر في «بورم». أما الطريق الأولى فهي التي سلكتها بعثة اودني - كلابرتون - دنهام عام 1822 م. وأما الطريق الثانية فهي تقريبا سلكها الميجر لينغ عام 1826م. والحقيقة المهمة التي يجب ألا يغفل ذكرها في تقرير من هذا النوع هي أن وحيد القرن لم يكن كثير العدد في شمالي أفريقيا الوسطى. فلا بد إذن أن يكون «يوليس متينرس» قد اجتاز الصحراء الكبرى.

وإذا لم يكن الأمر كذلك فإن الغموض يمكن أن يكتنف سير الرحلة. ويمكن أن يكون سير الأشهر الأربعة «رحلة دائرية». وأكثر الشرح يرفضون أن يكون الرومان قد ذهبوا إلى ابعده من بحيرة تشاد على الرغم من أن المرء حين يتذكر كيف كانوا يسبرون خلال المستنقعات والأراضي السبخة والغابات في أوروبا الشمالية ينتفي لديه كل سبب يحمله على القليل من بعد المسافة التي كان بمقدورهم أن يقطعوها في أفريقيا»⁹.

وبالإضافة إلى هاتين الحملتين نسمع بين سنتي 85 و86 م. عن قيام سويليوس فلاكوس، الذي سبق ذكره. بحملة ضد الناموسيين إلى الشرق من منطقة طرابلس. وكان هؤلاء قد ثاروا على جباة الضرائب الرومانيين وقتلوا بعضهم. وفي بداية الاشتباك هزم الناموسيون فلاكوس وجيشه واحتلوا معسكره. ولكن دخولهم المعسكر الروماني بدلا من متابعة فلور الرومان أدى في النهاية إلى هزيمتهم. وذلك أنهم وجدوا في المعسكر المأكولات والخمور فأكلوا حتى شبعوا وشربوا وسكروا. وفي هذه الغفلة كان فلاكوس قد تمكن من لم شتات قواته فأعاد الكرة على الناموسيين واعمل السيف في رقابهم حتى لم ينج منهم إلا عدد قليل لأنوا بالفرار إلى الصحراء. وعلى اثر هذا الانتصار قدم الإمبراطور دوميتيان تقريرا لمجلس الشيوخ الروماني تباهى به بقوله: (أن الناموسيين اختفوا عن مسرح الوجود).

وكان القرن الميلادي الثاني قرن سلم لمنطقة طرابلس كما كان لغيرها

9- المرجع السابق، ص 73-75.

من أنحاء الإمبراطورية بشكل عام. ولكن غيوم الحرب بدأت تتلبد قرب نهايته: فقد قام ليفي من أبناء القبائل الليبية بهجوم على سواحل منطقة طرابلس في عهد الإمبراطور سيبتيموس سويروس (Septimius Severus). ابن لبدة (-193 211 م)؛ ولكن هذا الإمبراطور سحق المغيرين بحملة ربما كان قد تولى قيادتها بنفسه عند زيارته لمسقط رأسه (203-204 م). واغتتم الإمبراطور فرصة وجوده في لبدة فبدأ بإعادة تنظيم وسائل دفاع الحدود. وواصل خطته هذه من بعده ابنه كراكلا ((Caracalla 211-217 م). ثم حفيده اسكندر سويرس (Alexander Severus 211-235 م). وتشكل هذه الخطوة من جانب أباطرة الأسرة السويرية الإفريقية نقطة تحول في السياسة الرومانية الخاصة بالدفاع عن الحدود. فحتى هذا الوقت. أي طيلة الاقرنين الأول والثاني من الحكم الروماني في افريقية. كانت سياسة الرومان الدفاعية تقوم على مبدأ الإغارة بقواتهم الخفيفة الحركة على مصادر الخطر. والقضاء عليها. ثم العودة إلى القاعدة. أما التنظيم السويري الجديد فقد اعتمد على إنشاء نظام دفاع ثابت العمق فأصبحت الحدود الرومانية في جنوب طرابلس تتكون من ثلاثة أحزمة عميقة متميزة عن بعضها البعض:

1- الحزام الأول: وكان أكثر هذه الأحزمة الثلاثة تعمقا نحو الجنوب. ويقدر إن حدوده كانت تنتهي بخط يصل بين قلعة «بوجيم» وقلعة «الغربية» و«سيدامي» «غدامس». وهي قلاع ثلاث أقيمت على خطوط المواصلات الثلاثة التي كانت تربط الدواخل بالساحل. وقام ببناء هذه القلاع الثلاث جنود ومهندسون من فرقة أوغستا الثالثة فبنوا قلعة «بوجيم» في عهد سيبتيموس سويرس. وقلعة غدامس في أيام كراكلا وقلعة «الغربية» في عهد اسكندر سويرس.

2- الحزام الثاني: وقد أقيم في عهد اسكندر سويرس للدفاع عن الحدود. وكان يمتد خلف الحزام الأول من جهة الشمال. ولم يكن سوى سلسلة من المستوطنات تنتشر في حوضي وادي سوف الجين ووادي زمزم. ولم يكن سكانها سوى قدماء المحاربين الليبيين الذي انهوا خدمتهم في فرقة

أوغستا الثالثة فمَنحوا مكافأة لهم على خدماتهم قطعة ارض معفاة من الضرائب. وإعداد من العبيد والماشية. لقاء تعهدهم بالدفاع عن منطقة سكنهم. وصد غارات القبائل البربرية عنها. وتعتبر آثار المزارع المحصنة التي كان هؤلاء المتقاعدون يعيشون فيها وما تركوه فيها من نصب تخليدا لذري موتاهم. من أهم الخلفات الأثرية في ليبيا.

وكان هذا الحزام يمتد ما بين شط الجريد في تونس وسبخة تاورغاء على خليج سرت الكبير. وهو أهم أجزاء خطوط الدفاع الرومانية في منطقة طرابلس من الوجهتين الجغرافية والتاريخية لأنه كان خط دفاع خلفي عن المدن الساحلية المزدهرة: صبراتة وأويا ولبدة. في وجه القبائل الليبية النوميدية التي كانت تسكن الدواخل. لأنه في الوقت ذاته وفر الحماية لأهم منطقة زراعية هي منطقة مزارع الزيتون في الجبل الغربي.

والواقع إن أصل خط الدفاع هذا ما زال يحف به الغموض؛ فالمصادر المكتوبة لا تعطي معلومات قاطعة عن بداية تأسيسه كجهاز دفاعي. والآثار لم تعط مزيدا من المعلومات بهذا الصدد عن فترة القرنين الأول والثاني للميلاد.

ونظرا لقلة البيانات بالنسبة لهذا الخط العسكري من ناحية ولتزايدها نسبيا في عهد سيبتيموس سويرس من الناحية الأخرى فانا نجد ما يبرر اعتبار هذا الإمبراطور مؤسساً لذلك الخط الدفاعي. وربما كان السبب الذي حمله على ذلك هو أن تهديد قبائل الدواخل أصبح أمرا وشيك الوقوع¹⁰.

3- الحزام الدفاعي الثالث: وكان عبارة عن طريق استراتيجي يسير على طول حافة الجبل الغربي مبتدئا من لبدة حتى ينتهي في قابس بتونس مارا إلى الشمال من هضبة غريان وهضبة ترهونة الحصبة. وليس هنالك ما يدل على أن هذا الطريق كان معززا بحصون أو قلاع. إنما كان فقط مجرد خط مواصلات خلفي يتم نظام الدفاع المذكور الذي اعتمد العمق ونقاط الدفاع

10- The Journal of Roman Studies, Vol.: XXXIX, 1949, Parts I & II, pp 8185-, an article under the title "The Limes Tripolitanus in the Light of recent discoveries, by R.G. Goodchild & J.B. Ward Perkins.

الثابتة أساسا له.

وبالرغم من وفاء سيبتيموس سويرس للمنطقة التي ولد فيها فان نظام الدفاع السويبري السابق الذكر أدى في النهاية إلى إضعاف السلطة الرومانية في هذه المنطقة لأنه نَمى روح الاستقلال الوطني لدى أصحاب المزارع المحصنة في الحزام الثاني وهم كما سبق أن لاحظنا من الليبيين المتقاعدين من الخدمة العسكرية. وقد أدت طبيعة عملهم الدفاعي إلى اعتمادهم على أنفسهم في كل شيء مما جعلهم ينزعون إلى الاستقلال عن السلطة الرومانية ويميلون فيما بعد إلى التفاهم وربما التعاون مع أبناء جلدتهم من القبائل الليبية¹¹.

وقبيل منتصف القرن الميلادي الثالث. أي في حمأة الفوضى العسكرية والحروب الأهلية التي غرقت فيه الإمبراطورية الرومانية بين سنة 235 م وسنة 285 م¹². أي منذ نهاية الأسرة السويرية حتى تولي ديوقليانوس عرش الإمبراطورية. سحبت فرقة أوغستا الثالثة من منطقة طرابلس نهائيا وطور نظام الدفاع عن المنطقة بإتباع النظام المركزي؛ فقسمت المنطقة إلى مناطق دفاعية متعددة وأنيط أمر الدفاع عن كل منها بقوة محلية مقيمة فيها مع قائدها. ومن أمثلة مناطق الدفاع المذكور تلك البناية الصغيرة الحصينة في سانية ذويب بأعلى وادي سوف الجين حيث لا تزال نشاهد نصاب منقوشا على البناية يقول أنها أقيمت في عهد الإمبراطور الروماني فيليب العربي الحوراني (244-289 م) لصد غارات البربر. ومنذ ذلك الحين استقر نظام الدفاع الروماني في منطقة طرابلس على هذا الحال حتى نهاية العهد الروماني. مع احتلال الوندال للساحل الطرابلسي سنة 445 م. انتهى هذا النظام الدفاعي. وليس هنالك ما يدل على إحياء البيزنطيين له.

11- Mathews, Kenneth D. Jr., and Cook, Alfred W. Cities in the Sand, Philadelphia, University of Pennsylvania Press, U.S.A., 1957, P. 25.

12- دفعت الولايات الرومانية ثمناً غاليا للحروب الرومانية الأهلية فمع أنها باستثناء المواطنين الرومان الأحرار المقيمين بها. لم تشترك بنصيب فعال في تلك الحروب إلا أن الغرم الحقيقي وقع عليها إذ كان عليها أن تتحمل المصروفات الباهضة التي تطلبها تلك الحروب.

عناصر ولغة السكان في منطقة طرابلس:

يبدو أن سكان الولايات الرومانية في افريقية كانوا قد ازدادوا بشكل ملحوظ خلال القرن الميلادي الثاني مما برر تقدير معدلهم بين 98 م و 244 م بما لا يقل عن ثمانية ملايين نسمة.

أما العناصر الرئيسية التي كانت تؤلف سكان منطقة طرابلس في العصر الروماني فهي العنصر الليبي البربري الذي سبق أن تعرضنا لذكر قبائله. والعنصر الفينيقي الذي كان مستقرا في المستوطنات الفينيقية على الساحل. والعنصر الروماني الذي كان كانت بيده السلطة. ويضاف إلى هذه العناصر الثلاثة التي كانت تشكل أغلبية السكان عنصران آخران يحتلان نسبة قليلة من مجموع السكان هما العنصر اليهودي والعنصر الإغريقي. ولقد سبقت الإشارة إلى أن علاقة الفينيقيين بالليبيين كانت علاقة اقتصادية أكثر منها سياسية ولذلك فإن الفينيقيين - بعكس الإغريق في برقة - أفادوا الليبيين الكثير وعلموهم الكثير من المجالات العمرانية والاقتصادية خاصة ما كان يتعلق بالتجارة وبالبناء والزراعة¹³. وإذا ما تذكرنا التنافس والنزاع الذي تميزت به علاقة الفينيقيين والإغريق أمكننا أن نقرر باطمئنان أن الفينيقيين لم يسمحوا للعنصر الإغريقي بالدخول إلى منطقة طرابلس والاستقرار فيها. وعلى هذا الأساس فإن الإغريق إنما قدموا إلى هذه المنطقة كأفراد وبإعداد قليلة للغاية في ظل العلم الروماني.

أما العنصر اليهودي فإن مصادرنا لا تكاد تسعفنا بشيء يذكر عنه؛ فهيرودوتس لا يذكر اليهود عندما يعدد عناصر السكان في ليبيا وهذا يعني أنهم لم يكونوا قد دخلوها حتى وقته (القرن الخامس ق.م). ولكن إذا تذكرنا العلاقات الطيبة التي كانت سائدة بين اليهود في فلسطين والفينيقيين في

13- صفر أحمد. مدينة المغرب العربي في التاريخ. ج 1. دار النشر - بو سلامة - تونس. ص 165-145. انظر أيضا:

Papers of the British School at Rome, Vol. XXXI, London, 1963, an article under the title "Wealth and Munificence in Roman Africa", by R.P. Duncan - Jones.

فينيقية خاصة أيام الملك سليمان وصديقه حيرام ملك صور. و افترضنا أن تلك العلاقة الودية ظلت قائمة بين الشعبين بشكل أو بآخر فانه لا يمكننا إلا أن نستنتج أن بعض اليهود رافقوا الفينيقيين في قدومهم إلى الشمال الإفريقي بصفة عامة وإلى منطقة طرابلس بصفة خاصة. وعلى هذا الأساس فلا بد أن اليهود بدأوا يقدون إلى المستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس بعد القرن الرابع قبل الميلاد لكي يشتغلوا في التجارة والأعمال المالية المتعلقة بها أو في الصناعات اليدوية الأخرى أو في الزراعة. وفي هذا الصدد يحدثنا الأستاذ احمد صفر بقوله: «إن اليهود كانوا بدون شك رافقوا الفينيقيين في سفراتهم إلى الموانئ والمصارف التجارية بافريقية. وان تشتتت يهود فلسطين من أيام القدس [الأشوريين والبابليين] جلب إلى افريقية وإلى العالم الروماني بأسره عددا كبيرا من المهاجرين. وقد وقع تقدير عدد اليهود المبددين في العالم في القرن الأول من الميلاد بما يفوق ستة أو سبعة ملايين. منهم مليون بمصر. وكان عددهم مرتفعا أيضا بطرابلس. وكانوا يعيشون أحرارا طبق عوائدهم وتقاليدهم وقوانينهم. ويقومون بدعاية كبيرة حت ظل بيعتهم. وكان التبشير ضاربا أطنابه والثونيون يعتنقون دين اليهود بكثرة. ثم انتشرت الديانة اليهودية في بعض القبائل بالجنوب الغربي من البلاد التونسية¹⁴ » ويقول أنطونيو مريغي في هذا الصدد أيضا¹⁵: «إن ما نعرفه عن انتشار العنصر اليهودي في منطقة طرابلس قليل جدا. ولاشك أن بعض اليهود قدموا مع الفينيقيين واشتغلوا بالتجارة في المراكز التجارية الفينيقية في طرابلس ولكنهم إنما انتشروا في الأقسام الغربية من أفريقيا في أعقاب هجرتهم إلى برقة مما أدى إلى ازدياد عددهم في طرابلس في ظل الرومان حتى صار لهم في كل من المسدن الثلاث جالية مزدهرة كما أن بعض جالياتهم الصغيرة وجدت مراكز صغيرة في بعض الأماكن البعيدة حول خليج سرت الكبير».

14- صفر أحمد. مدينة المغرب العربي في التاريخ. ج 1. دار النشر - بو سلامة - تونس. ص 361-362.

15- Merighi, Antonio, Storia Della Libya - La Tripolitania Antica, Volume Second, A. Airolti Editore Verbania, MCMXL - XVIII, PP 33- 34.

ويقول أنطونيو ميرغي في موضع آخر من كتابه: «وفي القرن الميلاد الرابع كان كثير من اليهود في أفريقيا الوسطى. يشهد بذلك وجود كنس لهم في مدنهم المختلفة»¹⁶.

ويقول بروكوبيس في حديثه عن مدينة بوريوم الواقعة على خليج سرت: «وقد عاش اليهود بالقرب منها منذ الأزمنة القديمة. وكان لهم معبد عتيق هناك أيضا يوقرونه ويكرمونه. منذ أن بناه سليمان - كما يقولون - حين كان يحكم الشعب العبري»¹⁷.

وإذن فإن اليهود كونوا في طرابلس ابتداء من أواخر القرن الرابع قبل الميلاد جاليات يهودية صغيرة نظمت شؤونها وحياتها وفقا لشرائعها وتقاليدها كما سنبينه عند الحديث عن اليهود في برقة. ويجدر بنا أن نلاحظ أن مقدمهم إلى إقليم طرابلس منذ أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث قبل الميلاد يصادف فترة مقدمهم إلى برقة وبدء العهد البطلمي في مصر. ويصادف كذلك مرحلة الصراع بين البطالمة والسلوقيين على فلسطين وما تلا ذلك من محاولة السلوقيين فرض الهلنة على اليهود مما جعل بعضهم يفرون بحياتهم وأموالهم بمساعدة أصدقائهم الفينيقيين إلى الأماكن البعيدة عن الخطر فجاؤوا إلى منطقة طرابلس وغيرها من أرجاء الشمال الإفريقي. ونحن لا نشك في أعداد أخرى منهم ظلت تتوافر على منطقة طرابلس في العصور اللاحقة وخاصة في أوقات الحزن التي كانوا يتعرضون لها نتيجة لتصلبهم وثوراتهم: فقد ثاروا في فلسطين وفي برقة سنة 70 م. وبطش بهم الرومان وشتتوهم لكي يضمنوا عدم تكرار ثورتهم. وثاروا ثانية في برقة سنة 115 م. وفي مصر وقبرص وإنطاكية ومسوبوتاميا بالعراق فجلبوا على أنفسهم هذه المرة ما جلبوه عليها في الثورة السابقة. ثم ثاروا ثورتهم الثالثة والأخيرة على الحكم الروماني في فلسطين سنة 132-135 م. فكانت النتيجة وبالا عليهم فقد شتتتهم الرومان في أراضي الإمبراطورية الرومانية في القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا.

¹⁶- Ibidem, p. 268.

¹⁷- خشيم، علي فهمي، نصوص ليبية، مكتبة الفكر طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، 1967، ص 218.

ومن الواضح على ضوء ما تقدم أن الجاليات اليهودية في منطقة طرابلس بدأت صغيرة ثم أخذت أعدادها تتزايد تدريجيا بانضمام قادمين جدد إليها. وأنها كانت تتمتع بحريتها الدينية، بالإمكانيات التي استطاعت الأقلية اليهودية أن تحوزها لنفسها دون غيرها من الأقليات في العصور والمجتمعات القديمة المختلفة، وإذا قدرنا أن الجاليات اليهودية في منطقة طرابلس عاشت بسلام طيلة عهد الفينيقيين الذين كانت تربطهم باليهود أوامر صداقة تقليدية قديمة، فإن ما يدعو للتساؤل حقا هو سكوت مصادرنا عن رد الفعل الذي كان لابد أن يحدثه ثورات اليهود المتعاقبة في الشرق. وخاصة ثورة يهود برقة سنة 115 ق.م. بين يهود طرابلس. وهو سكوت إن جاز يفسر بالرغبة في المحافظة على الهدوء والسلام في أية مناسبة أخرى فلا يجوز أن يفسر بذلك في هذه المناسبة: إذ كيف نفسر عدم ثورة اليهود في طرابلس على الرومان في وقت ثار فيه أبناء جلدتهم في قورينة ومصر وقبرص وأنطاكية ومسوبوتاميا؟ إن المصادر المتوافرة لدينا لا تلقي أي ضوء على هذه النقطة: وربما لا نجافي الحقيقة إذا افترضنا أن الجاليات اليهودية في طرابلس لم تكن كبيرة: وان أغلبية يهود منطقة طرابلس كانوا من غير المتعصبين لدينهم من ناحية، وكانوا مرتبطين بيهود الغرب (خاصة إيطاليا وأسبانيا) أكثر من ارتباطهم بيهود الشرق من الناحية الأخرى. وكانوا من العاملين في التجارة والحقول المالية من الناحية الثالثة: فإذا صح ذلك فإنه يفسر عدم قيامهم بثورات من أجل المحافظة على أموالهم ومصالحهم ولأنهم بعيدون عن يهود الشرق ولذلك فهم غير متأثرين كثيرا بهم.

أما بالنسبة للغة فإن اللغة البونيقية أي الفينيقية الحديثة كانت سائدة دون شك في مدن الساحل الطرابلسي والمناطق القريبة منها خلال الوجود الفينقي. وربما ظلت كذلك حتى أوائل القرن الميلادي الثاني. ولاشك كذلك أن اللغة البربرية ظلت سائدة بين القبائل الليبية البربرية التي كانت تنتشر في الأجزاء الداخلية من البلاد. ومع بدء العصر الروماني صارت اللغة اللاتينية تنمو تدريجيا في المنطقة، ومن المؤكد أن اللغة البونيقية تلاشت وانتهى أمرها. كلغة محكية على الأقل. مع مطلع القرن الميلادي

الثاني. ولعل آخر استعمال لها هو ما تجده في نقش من لبدة مؤرخ بسنة 92 م: وقد سجل هذا النقش باللغتين البونيقية واللاتينية¹⁸. ومع ذلك فإن اللغة اللاتينية لم تصبح لغة الريف الدارجة. ولا عبارة هنا قط لاستعمال القديس أوغسطين لكلمة «بونيقية» وصفاً للغة التي كانت محكية في عهده في ضواحي مدينة هيبونة الفينيقية (= عنابة بالجزائر). إذ يجب ألا نأخذ ذلك الوصف بحرفيته لأننا نعلم أن اللغة الليبية البربرية القديمة. وهي أم اللهجة البربرية التي لا يزال البربر يتكلمونها حتى الآن. ظلت قيد الاستعمال. وجدير بالإشارة هنا إلى أن اللغة الإغريقية كانت تلقى إقبالاً من الطبقة المثقفة ولذلك فإننا نستطيع أن نقول إنها كانت موجودة بين أبناء تلك الطبقة وعلى نطاق محدود.

أما بالنسبة لفران فيبدو أن الرومان لم يحاولوا أن يفتحوها ويستعمروها على غرار ما فعلوا بالنسبة لطرابلس وغيرها من مناطق الشمال الإفريقي الساحلي. ولكنهم في الوقت ذاته وجدوا أن مصالحهم التجارية مع أواسط إفريقيا كانت ختم عليهم السيطرة على طرق القوافل التجارية التي كان لا بد لها أن تمر بفران. كما ان حماية المزارع والمشروعات الأخرى القائمة في ريف منطقة طرابلس كانت قد حتمت عليهم مقاتلة البربر والجرامنتيين ومدافعهم عن تلك المنطقة. وعند هذا الحد نجد أنفسنا مضطرين للتساؤل عن مدى تغلغل الرومان في أعماق الصحراء الليبية. وعن بقية الأسباب التي دفعتهم إلى التغلغل في منطقة مقفرة يكاد يستحيل على أية جماعة مستقرة أن تبقى على قيد الحياة فيها.

ونود أن نقرر منذ البداية أن من غير الممكن حتى الآن إعطاء جواب قاطع على هذا التساؤل. ولكن المسح الجوي الذي قام به الكولونيل الفرنسي «جان براداي» للمناطق الجنوبية من الصحراء الجزائرية طيلة ثلاث سنوات (1946 - 1949) بيّن لأول مرة مدى ما كان عليه التنظيم الروماني العسكري والمدني على حدود تلك الصحراء.

18- إمار، أندريه وأوبويه، جانين، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، ترجمة يوسف أسعد داغر ورفيقه، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت، 1964، ص 462.

يقول جيمس ويلارد في تعليقه على ذلك التنظيم¹⁹:

«إنه مثال من الاستعمار ليس له مثيل في التاريخ من حيث التخطيط والفعالية والنجاح. ذلك أن بناء الخنادق والطرق والحصون والقلاع ومراكز المراقبة وبراج الخابرة على حدود يبلغ طولها حوالي «1500 ميل». لم يضطلع به الرومان فقط من أجل صد بدو الصحراء عن مهاجمة المدن الكبرى المزدهرة في إفريقية التابعة للإدارة القنصلية، بل لتمهيد السبيل من أجل إسكان عدد كبير من المزارعين. وجاح هذه الخطة تدل عليه صور الكولونيل (براديز) الجوية الرائعة التي تظهر بقايا المئات من القرى والمزارع حيث لا يوجد اليوم شيء سوى الصخور المتآكلة.

إن الخبراء أنفسهم لتستبد بهم الحيرة بشأن كيفية إنجاز الرومان هذا العمل الذي يفوق فيما يبدو طاقة البشر. بإقامتهم مثل هذا العدد الكبير من المراكز الأمامية في الخلاء ناهيك عن جر المياه الذي يعتبر بدونه كل عمل للإسكان إضاعة للوقت».

وبالرغم من أن أحدا لا يعرف على وجه الدقة ما الذي حمل الرومان على تجسيم أنفسهم نشاق استيطان الصحراء إلا أن اقرب نظرية للقبول هي تلك التي تقول أن روما منذ عهد أوغسطس كانت في حاجة ماسة إلى مصدر جديد للمؤن لتطعم مدنها المزدهمة بالسكان ولتطعم الآلاف المؤلفة من الجماهير الإيطالية التي أخذت تهجر الأرياف وتتكدس في روما لتتغذى وتشهد السيرك على حساب الإمبراطورية. ولهذا فإن الرومان وجهوا أنظارهم لاستغلال شمالي إفريقيا بسواحلها وصحاريها في محاولة لتحويلها إلى أهراء لروما ومن ورائها إيطاليا. وبدا العمل كما أسلفنا على أيدي فرقة أوغستنا الثالثة التي مهدت الطرق وأقامت القلاع والحصون وشبكات الري ومراكز الحراسة في المزارع المتعمقة في جوف الصحراء كما أثبتت صور الكولونيل «براداي». وهناك ما يدل على أن الرومان اتبعوا هذه السياسة نفسها في تمهيد الطرق وإنشاء الحصون وشبكات الري في المغرب

19- ويلارد، جيمس، الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، الطبعة الأولى، بيروت، 1967، ص 116.

الأقصى وتونس وليبيا على نحو ما فعلوا في الجزائر. إلا أنه لم يكتشف في أعماق الصحراء الليبية ما يدل على أن الرومان حاولوا استغلال هذه الصحراء على نحو ما فعلوا في الصحراء الجزائرية.

ويبدو لنا أن تمهيد الطرق كان مفتاح الحملات الإجمارية إلى قلب الصحراء أو أطرافها. لأن وجودها كان يضمن وجود مواصلات آمنة وإمدادات كافية. والطرق الرومانية كانت على نوعين: واحد مدني والثاني عسكري. وكانت الطرق المدنية هي الطرق الرئيسية ولذلك فقد كانت ممهدة وكانت تستعمل للنقل العام وللبريد السريع. أما الطرق العسكرية فكانت ضيقة مستقيمة تخترق البلاد من حصن إلى آخر مباشرة. وكانت فرقة أوغستا الثالثة تقيم عند كل ميل روماني «أي كل 1480 متراً» شارة حجرية على شبكة الطرق الرئيسية تنقش عليها: «هذا النصب إقامته فرقة أوغستا الثالثة». وقد تم حتى الآن العثور على أكثر من ألفين من هذه الأنصاب في مختلف أرجاء الولايات الإفريقية الرومانية. وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أنه لم يعثر حتى الآن على أي شيء يدل على أن الطرق الرومانية في ليبيا كانت مرصوفة بالحجارة مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أنها كانت طرقاً ترابية²⁰.

وبعد إقامة شبكات الطرق وضمان وجود مواصلات مأمونة كانت الفرقة تبدأ بإقامة الحصون والأبراج في جميع المواقع الاستراتيجية بمعدل «حصن كل ميل» ثم تصل بين كل حصن والذي يليه بخندق أو بعدد من البروج وذلك لكي يبقى جنود كل حصن على مرأى من جنود الحصن الآخر لإجراء المحابرات بواسطة النيران في الليل والدخان أو الإشارات في النهار. وكان هذا النظام فعالاً إلى درجة مكنت الرومان من حكم مليون ونصف المليون ميل مربع من الشمال الإفريقي لعدة قرون بقوة فرقة أوغستا الثالثة التي لم يكن عدد أفرادها يتجاوز اثني عشر ألف جندي يعززهم ما لا يزيد عن خمسة عشر ألف جندي آخرين من قوات محلية وغير نظامية.

20- Goodchild, R.G. The Roads and Milestones of Tripolitania, Discoveries and Researches in 1947, Department of Antiquities, British Military Administration, Tripoli, 1948, p. 7

والخطوة التي كانت تلي إقامة شبكات الطرق والحصون هي توغل جنود فرقة أوغستا الثالثة في الصحراء مطمئنين لمواصلاتهم وأمنهم. ومتفرغين لإقامة المعسكرات والحصون في الواحات الرئيسية على طرق القوافل المتجهة إلى أواسط أفريقيا من مثل حصن غدامس. وكانوا يصلون بين هذه الحصون بخنادق تحفر تدريجياً ويمدون وراء الخنادق طرقاً لدورياتهم. على الجهة الداخلية من خطوط الحدود هذه وأحياناً على الجهة الخارجية. كان مهندسو الفرقة يصممون وينشئون سلاسل من المزارع المحصنة التي كانت تقطع للمحاربين المتقاعدين من الفرقة كما سبق أن ذكرنا. وتدل الحفلات الأثرية التي استخرجت من قبور رجال الحدود المستوطنين هؤلاء على أنهم كانوا يستخدمون الخيل أولاً ثم الجمال في حراثة مزارعهم. وكان السيد المتقاعد يجلس على كرسيه ليراقب عمل عبيده وهم يقومون بجني المحصولات في المواسم المختلفة.

أما مشكلة الجفاف فقد سلك الرومان طرقاً فذة للتغلب عليها: فهم مثلاً كانوا يختارون حصونهم ومعسكراتهم الرئيسية مواقع استراتيجية تتوافر فيها الينابيع أو الآبار أما في الأماكن الموعلة في أعماق الصحراء وحماياتها التي لم تكن فيها ينابيع أو آبار فكان الرومان يحسنون استغلال مياه الأمطار والوديان إذ أنهم كانوا بالعمل الشاق الدائب يسيطرون على الأمطار الساقطة في مناطقهم قبل أن تتمكن من بلوغ مجاري المياه وذلك بإقامة الجدران والمسطحات والخنادق والحواجز والسدود والخزانات والبرك لاحتواء كل نقطة من المطر تنزل على المنحدرات الصخرية قبل ضياعها في الرمال. فكانوا بذلك يحبسون المطر بحيث يسقط. كما كانوا يحولون مياه الأخاديد إلى البرك والخزانات التي أقاموها حيث تبقى مجمعة ليستعملوها فيما بعد. أما مياه الوديان فإنهم كانوا يحجزونها بواسطة ما يقيمونه من سدود حجرية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرومان كانوا يقيمون نوعين من السدود لحفظ مياه الأودية: ففي الأودية الصخرية الضيقة كانوا يقيمون سدوداً حجرية تقطع الأودية عرضاً وترتبط بجانب الجبال المحيطة بها.

وهذا النوع من السدود كان يبنى بالصخور ويقطع الحجارة الكلسية

المعدة خصيصا لهذا الغرض والتي كانت تثبت بالجير القوي، وخير مثال على هذا النوع هو السدود التي كانت مقامة على وادي لجينين ووادي كعام، والنوع الثاني من السدود هو السدود الترابية التي كانوا يقيمون أكثر من واحد منها عبر الوادي الواحد، وبالإضافة للسدود فقد عمل الرومان بركا لتجميع المياه توجد في ليبيا وتكثر في منطقة طرابلس وخاصة في وادي لجينين ووادي زمزم²¹.

وكانوا يقيمون قنوات للري تمتد من الوديان والخزانات إلى الحقول المقسمة إلى قطع مستطيلة بواسطة أحاديدي جري المياه فيها ببطء يسمح لكميات منها بالتفشي في باطن الأرض بدلا من ضياعها سدى، وبذلك تحفظ التربة المحددة على هذا النحو بنسبة كافية من الرطوبة في الأوقات التي تكون فيها بقية التربة قد جفت تماما. ونظام الري هذا لم يجعل الزراعة في الصحراء مكنة فحسب بل جعلها مجدية كذلك.

وبالإمكان القول إن هذه الجهود الجبارة والأعمال الشاقة التي حملها الرومان مختارين لإقامة حصون ومزارع محصنة على طول تخوم الصحراء الكبرى في الشمال الإفريقي قد آتت أكلها فأصبحت تلك الحصون والمزارع تخدم أغراضا سياسية أهمها أنها كانت:

- 1- خط دفاع خارجي في نظام الدفاع العسكري الذي كان يشمل أفريقيا الشمالية بأسرها.
- 2- مراكز للجمارك ولضبط تنقلات المسافرين.
- 3- مظهر قوة يردع بدو البربر في الجنوب ويرهبهم بوضوح أن الرومان كانوا أقوى منهم وأغنى وأكثر حضرا.

ولقد ظلت هذه الشبكة الدفاعية حتى حوالي سنة 400 م. وبعدها خضعت لهجمات البربر كغيرها من الأسوار والتحصينات الرومانية، ولعل

21- The Illustrated London News, December 16, 1961, article under the title "Ancient Systems for making the desert blossom as a rose: Water Conservation in Roman Tripolitania", by Olwen Brogan & Claudio Vita - Finzi, St. Jon's College, Cambridge, England.

أحسن ما قيل في وصف هذه الشبكة الرومانية هو ما أورده الكولونيل «بارادييز» في تقريره النهائي عن نشاطاته خلال ثلاث سنوات قضاها في دراسة جادة لحدود التوغل الروماني في الصحراء الجزائرية: «يجب علي أن أشدد للمرة الأخيرة على التناقض الخيف بين ما كانت عليه هذه المنطقة بكاملها في يوم من الأيام وبين ما هي عليه الآن. إن المنطقة قد تأكلتها اليوم بشكل مربع من الوهاد التي تزداد عمقا واتساعا في جميع الاتجاهات نظرا لهجر المنشآت الرومانية لحفظ التربة. والانطباع الذي ينشأ للمرء، عن المنطقة هو الانطباع الناشئ عن صحراء مقفرة تبعث على الذهول أكثر من الصحراء الكبرى ذاتها: أن الخراب هنا لأبعث على الكآبة والحزن»²².

من كل ما تقدم نستخلص أن الرومان جعلوا وجودهم ملموسا في فزان واستطاعوا بواسطة الحملات المؤقتة الناجحة التي كانوا يشنونها على الجرامنتيين بين الفينة والفينة أن يبسطوا عليهم نفوذهم ما كان يكفي لجعل الجرامنتيين حريصين على مخالفتهم اتقاء لشهرهم من ناحية ولكي يفيدوا من التعاون التجاري معهم من الناحية الأخرى. ولعل خير شاهد على هذا هو قيام يوليس مثيرنس وملك الجرامنتيين بالحملة المشتركة التي سبق أن حدثنا عنها والتي كانت تهدف ليس فقط إلى تعريف مثيرنس وقواته على إحدى طرق القوافل الرئيسية إلى تشاد وأفريقيا السوداء وإنما أيضا إلى جلب العبيد من تلك المناطق. وبكلمات أخرى فإن كلا من الفريقين الروماني والجرامنتي قد اقتنع بعد التجربة أنه لا يستطيع أن يقهر الفريق الثاني وأنه في الوقت ذاته لا يستغني عنه. فالجرامنتيون لم يكن في مقدورهم أن يستغنوا عن الموانئ الرومانية على الساحل الطرابلسي لأنها كانت التنفس الطبيعي لنشاطهم التجاري وهمزة الوصل بينهم وبين موانئ البحر الأبيض المتوسط. والرومان لم يكن في مقدورهم أن يستغنوا عن سلع أفريقيا السوداء التي لم تكن قوافلهم التجارية قادرة على الوصول إليها إلا عن طريق الجرامنتيين وبحراستهم. ولقد كانت حماية الجرامنتيين للقوافل أمرا لا يستغنى عنه لأن بعض القبائل الليبية القاطنة في الدواخل كانت تعيش

22- ويللارد، جيمس، الصحراء الكبرى، مكتبة الفرعاني، طرابلس، الطبعة الأولى، بيروت، 1967، ص 125.

على قطع الطرق ومهاجمة القوافل وسلبها. وقد حدث ديودورس الصقلي عن ليبيا لم يكونوا يلتزمون بطاعة الملك ولا يراعون العدالة بل يعيشون على السلب والنهب ويقومون بغارات مفاجئة من مراكزهم الصحراوية ثم يعودون سريعا إلى تلك المراكز. ويقول ديودورس إن أولئك الليبيين كانوا يرتدون ألبسة من جلود الماعز ولم تكن لهم مدن أو قرى بل كانوا يقيمون أبراجا إلى جوار منابع المياه يحفظون أسلابهم فيها. كما أن الواحد منهم كان يتسلح بثلاث رمح ويقطع من الحجارة يحملها في حقيبة من الجلد. وهم لم يعرفوا استعمال السيف أو لبس الخوذة. ولقد كانوا قساة في معاملة أعدائهم إذ كانوا يعاملونهم وكأنهم لصوص فلا يتورعون عن ذبحهم وسفك دمائهم.²³

من هنا بدأت العلاقات تتحسن بين الجرامنتيين والرومان بعد سلسلة مضيئة من المعارك ونشأ بينهما نوع من التفاهم والتعاون من أجل تأمين طرق قوافل التجارة الصحراوية. ولقد أثمر ذلك التعاون الصالح الطرفين فنشطت القوافل جوب طرق الصحراء الرابطة بين الموانئ الرومانية وأفريقيا الوسطى عبر فزان وأدى ذلك النشاط إلى ازدهار جرما وتوسعها فأقيمت فيها أبنية كثيرة جميلة على الطراز الروماني ما زلنا نشاهد منها حتى اليوم آثار المنازل الفخمة. والموسوليا²⁴ أو الأضرحة الكبيرة. والحمامات. واستمر هذا التعاون وذلك الازدهار في سلام حتى حوالي نهاية القرن الميلادي الرابع عندما قام غزاة مجهولون بالقضاء على ملكة الجرامنتيين وإحراق جرما. ولما كان هذا الحادث يصادف فترة النزاع بين الدوناتيين من البربر والكنيسة الكاثوليكية في روما وإتباعها في الشمال الإفريقي. فإننا قد لا نخطئ إذا إستنتجنا أن الدوناتيين من البربر الذين أصبحوا أكثر تطرفا وعنفا بعد وفاة

23- خشيم، علي فهمي، نصوص ليبية، مكتبة الفكر طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، 1967، ص 182-183.

24- الموسوليا أو الأضرحة الكبيرة نوع من القبور البارزة البنين والمشيدة على طراز ضريح الملك الإغريقي موسولس «Maussollus» صاحب هليكارنسوس «Halicaranssus» في آسيا الصغرى وكانت قد بنته له زوجته آرتميسيا «Artemesia» وشارك في جميله أربعة من كبار النحاتين اليونانيين. وعن هذا الضريح أخذ القرطاجيون نموذج أضرحتهم الكبيرة ثم أخذ النوميديون هذا النمط عن القرطاجيين. وعن النوميديين أخذه الجرامنتيون.

زعيمهم الروحي دوناتس سنة 355 م. هم الذين حرقوا جرما وخربوا مزارع الجرامنتيين وبساتينهم وأطاحوا بمملكتهم وذلك لنقمتهم على كنيسة روما من ناحية ولاستيائهم من تعاون الجرامنتيين وخالفهم مع الرومان إلا انه بوسعنا أن نؤكد أن السلطة الرومانية كانت على حافة الانهيار في أفريقيا الرومانية وان جرما نفسها كانت قد ضعفت إلى درجة مكنت الغزاة من اجتياحها وتدميرها بسهولة ظاهرة سنة 395 م. ولعل هذا الضعف كان ناجما عن عدة عوامل تكالبت على إضعاف التجارة التي كانت الشريان الرئيسي للحياة الجرامنتية وهي عدة عوامل كان أهمها:

1- نفاذ المياه الجوفية جزئيا ما سبب جفاف بعض العيون والآبار وبالتالي الواحات.

2- في أعقاب تزايد الجفاف جف الكثير من الحشائش والنباتات فسهلت حركة الكثبان الرملية التي كانت النباتات تثبتها في أماكنها ما جعلها تنتقل مع الرياح فتسد بعض الطرق التي كانت تستعملها الخيول والعربات الجرامنتية.

3- أدى نقص عدد الآبار والعيون إلى تطويل المسافة بين مصدر ماء والذي يليه ما صعب الأمر على حيوانات القوافل وأصحابها وحد من مقدرتها على الحركة.

4- اضطراب الأوضاع في المدن الساحلية والفقير الذي لحق بتجارها نتيجة لذلك أدت إلى إقعادهم عن المتاجرة مع الجرامنتيين.

5- مع نهاية القرن الميلادي الرابع بدأت قبائل البربر وخاصة هواره ومزانا ولواتا باستعمال الجمال للنقل عبر الصحراء فأصبحت بذلك في غنى عن جرما.

وزاد الموقف سوءاً أن الجرامنتيين أنفسهم لم يقبلوا على استعمال الجمال بل نفروا منها وظلوا أوفياء لخيولهم التي لا يمكن أن تقارن بالجمال في الأسفار الصحراوية.

وبعد هذا التاريخ خضعت ملكة الجرامنتيين كغيرها من المناطق الداخلية لسيطرة البربر حتى العهد البيزنطي.

ويظهر التأثير الروماني جلياً في غير الموسوليا من آثار جرما. فهناك قبور مربعة ذات درجتين وهي مقصورة قصارة بيضاء من الخارج ويبلغ عمق لحودها حوالي أربعة أمتار. وقد وجد في تلك القبور بعض الفخار الروماني الممتاز إلى جانب الزجاج والحلي الذهبية واغواش مصنوعة من حجر الأمازون أي العقيق. وقد لاحظ الأثريون أن هذا النوع من القبور و النوع المألوف في المقبرة والملكية. وإن كانت أعداد منه قد وجدت في وادي الآجال إلى الشرق والغرب من جرما. وبالإضافة إلى هذا النوع وجدت قبور هرمية بنيت أهراماتها التي يتراوح ارتفاعها بين مترين وأربعة من اجر الطين وحفرت اللحود تحت تلك الأهرامات على عمق مترين أو ثلاثة؛ ويعتقد أن هذا النمط من القبور منقولاً إما عن مصر وإما عن السودان. وهنالك بعض المذابح المبنية بالحجر الرملي إما على شكل مسلة صغيرة وإما على شكل فرن؛ وكانت تطل باللون الأحمر وتوضع أمام القبور جاه الشرق أو الغرب وإلى جوانبها موائد القرابين.